أسقيها كل لحظة

في تسبحة عجيبة لأشعياء النبي أخذ يتغنى للكرمة المشتهاة قائلاً: "أنا الرب حارسها أسقيها كل لحظة" (أش٢٧:٣). ومن المعروف أن كل نبات له طبيعة خاصة إذ تختلف قدرة كل نبات على احتمال العطش. فهناك نباتات تحتاج للري مرة كل أسبوع وأخرى مرة كل يوم أو يومين. إلا أننا لم نسمع قط في عالم الزراعة أنه يوجد نبات يحتاج للري كل لحظة!! أما قوانين وأعراف الملكوت فتنص على أن النفس البشرية هي كمثل نبات حساس جداً يحتاج للري المستمر كل لحظة بالمعنى الحرفي للكلمة وليس على سبيل المجاز. من أجل ذلك حذرنا السيد المسيح كرمتنا الحقيقية أنه في اللحظة التي لا نثبت فيه كأغصان نطرح خارجاً ونجف. لأن شمس التجارب المحماة عند الظهيرة لابد وأن تحرق كل غصن غير مرطب بزيت نعمة الله. وبمقدار عطش النفس لله بمقدار ما تلتصق به وتثبت فيه. أما النفس التي تترك الله ينبوع المياه الحية وتحفر لنفسها آباراً مشققة لا تضبط ماء باحثة عن شبعها وروائها في كرمة العالم الزائفة فإنها تبقى عطشى إلى الأبد طالما أن: "كل من يشرب من هذا الماء يعطش أيضاً" (يو٤:١٣). ولعل هذا هو السبب الذي جعل داود يصرخ إلى الله متوسلاً: "عطشت إليك نفسي يشتاق إليك جسدي في أرض ناشفة ويابسة بلا ماء" (مز٦٣:١) وأيضاً: "بسطت إليك يدي. نفسي نحوك كأرض يابسة" (مز١٤٣:٦).

أن يسقي الكرام الكرمة كل لحظة يعني بالضرورة بقاءه معها كل حين وعدم غفلته عنها من أجل ذلك يستكمل أشعياء أنشودته قائلاً: "لئلا يوقع بها أحرسها ليلاً ونهاراً" (أش٢٧:٣). أما داود فيقول: "إنه لا ينعس ولا ينام حافظ إسرائيل" (مز١٢١:٥).

اللحظة الواحدة من الزمن لها قيمتها في الملكوت. فلو فاتت أليشع لحظة صعود إيليا لما نال اثنين من روحه، ولو فاتت اللص اليمين لحظة افتقاده لما صار مع المسيح في الفردوس، ولو فاتت رب البيت اللحظة التي يأتي فيها السارق لنُقب بيته، ولو ألقى المحارب سلاحه لحظة واحدة لقتله العدو، ولو فتحت المدينة أبوابها لحظة واحدة لدخلتها الغوغاء، بل أنه لو كان اللاهوت قد فارق الناسوت للحظة واحدة أو طرفة عين لما تحقق خلاصنا بالمرة. من أجل ذلك يحثنا القديس أنطونيوس قائلاً: "أطلب التوبة في كل لحظة ولا تدع نفسك للكسل لحظة واحدة" لأن كل قصص السقوط المروعة لجبابرة القديسين بدأت بلحظة من الغفلة والاستسلام والتراخي. وكل شجرة عاتية للعادات الرديئة تبدأ كبذرة صغيرة يزرعها عدو الخير في داخل النفس في لحظة ثم يمضي. لذلك تحتاج النفس لأن تلتصق بكل فكرها وكل قلبها

وكل قدرتها بالله كل لحظة. ولكي يتحقق ذلك فلابد لها من أمرين: الصلاة بلا انقطاع، واللهج في وصايا الكتاب المقدس ليلاً ونهاراً. فعندئذ فقط يثبت الإنسان في الله والله فيه وتتقدس كل لحظات حياته.